

## الأثر الفوتوغرافي في رواية "جيرترود"

جعفر عاقيل

المعهد العالي للإعلام والاتصال - الرباط

تحاول هذه القراءة الوقوف على بعض الأشكال والمعاني التي تحضر بها الصورة عموماً والفوتوغرافيا تحديداً في رواية "جيرترود" لكتبتها حسن نجحي، وبالمناسبة فهي صادرة سنة 2011 عن المركز الثقافي العربي. إن ما يبرر قراءتنا هو انفتاح هذه التجربة الروائية، إلى جانب بعض التجارب الأدبية المغربية الأخرى في العقود الثلاثة الأخيرة، على مجموعة من الأشكال التعبيرية البصرية كالتصوير والسينما وضمنها أيضاً الصورة الفوتوغرافية<sup>1</sup>. ثانياً، الحضور المميز للغة والأسناد والثقافة البصرية في مختلف فصول الرواية، فهي حيناً تمثل لوحة زيتية وحيناً آخر منحوتة وفي أكثر من مناسبة صورة فوتوغرافية. ويشغل هذا الشكل التعبيري الأخير حيزاً هاماً في البناء العام للرواية وذلك من خلال الحضور المكثف والمتعدد للألبوم الفوتوغرافي ولجنس البورتريه الفوتوغرافي. بل يمكن القول إنهما يقومان بدور اللازمة في هذا النص، فبدءاً بالغلاف ومروراً بمختلف فصول الرواية وانتهاءً إلى الصفحة الرابعة منه نجد أن لغة الصورة، وتحديد البورتريه، حاضرة كآلية بل كمكون أساس في كتابة النص وفي نسج خيوط أحداثه وحالاته.

ويمكن التمييز عملياً بين ثلاثة أنواع من البورتريهات في رواية "جيرترود". النوع الأول، ينتمي إلى مجال التصوير La peinture وتجسده صورة غلاف الرواية باعتبارها عتبة نعب من خلالها إلى عوالم شخصية جيرترود ستاين. وقد احتل هذا البورتريه ثلثي مساحة

الغلاف كما يجسد لقطة صدرية يبرز فيها بجلاء وجه جيرترود بملامح حزينة وبنظرة ثاقبة توجه القارئ نحو خارج الحقل المصور. وللتذكير فقط، فهذا البورتريه هو موقع بريشة المصور الإسباني الشهير بابلو بيكاسو. لا يتلقى القارئ هذا الغلاف باعتباره وسيلة للإغراء والاستمالة والاستدراج، أي كسند للإشهار والدعاية بالمنتج وهو الدور الذي يلعبه كل غلاف في مثل هذه المناسبات فحسب، بل أيضا باعتباره تكثيفا واختزالا وتبئيرا لمجموع القصص التي ستسج خيوطها فيما بعد فصول الرواية، سواء تعلق الأمر بوجه جيرترود ستاين وملاحمه وتفصيله أو بمزاج شخصيتها أو بانكساراتها وأفراحها أو بهوموم حيواتها الخاصة والعامة. إن هذا التوظيف، في تقديرنا، ليس توظيفا اعتباطيا وإنما يتم عن اختيار جمالي وللتذكير بتلك العلاقة الوجودية التي كانت تربط جيرترود بهذا البورتريه. إذ تحدثنا صفحات الرواية بتفصيل وفي أكثر من مناسبة عن هذه العلاقة عبر لسان الراوي: "وهناك، فوق المدفأة كان يعلو البورتريه المعلوم لبيكاسو، ذاك الذي لا يكاد يمر يوم جديد بدون أن تتكلم عنه جيرترود. هناك في الأعلى، وكأنه مرآة تنطلع إليها الأنسة لترى روحها لا وجهها فقط" ص. 138. ثم يسترسل في الصفحة نفسها "ومرة أخرى، وقف محمد يتأمل البورتريه الذي جعلت منه بؤرة حياتها اليومية، بل حياتها كلها". كما يضيف في ص. 219. "وتدريجيا، صار البورتريه بؤرة اهتمام محمد مثلما كان بؤرة لاهتمام جيرترود، وربما بؤرة لوجودها كله".

أما النوع الثاني، فنطلق عليه إجماعا "البورتريه اللفظي" وهو بدوره يشغل مساحات مهمة في الرواية كما يتظهر في فصولها بأساليب وصيغ مختلفة. وتقوم وظيفته على تقريب شخص الرواية من القارئ وخاصة منها شخصية جيرترود، يقول الراوي: "تأمل الجسد الملحمي الذي يُشَدُّ الانتباه كَلَّه، الوجه شبه المستدير، وشعر الرأس المصفوف بعناية مثل

إكليل ملكي، والكلب الأبيض الصغير باسكيت وهو يداعب ساقها، ثم بدا له صفاء الجبين وانتفاخ عند مُنْحَى الجفنين لعله من أثر السهر. وعادا للجلوس أحدهما قبالة الآخر." ص.79، وفي موضع سابق يتدخل الراوي بعبارات مختلفة ليصف لنا إحدى الشخصيات فيقول: "لايكشف وجه ليديا أتمان عن سنها، لكن لا يبدو أنها وصلت الخمسين. وجه دائري ممتلئ، نحاسي، فاتح السمرة لامرأة مفعمة بالحياة من الجنوب الأمريكي. صدر عريض ناهض. تبدو ميالة إلى التفكك والانسراح والظرافة، متقدة الحواس مثل جمرة هادئة، وإن كانت تفضل الصمت واختصار المناقشات. ولا تعطي الانطباع، رغم هدوء الملامح، بأنها تحتزن سلاما داخليا." ص 62<sup>2</sup>. إن هذا النوع من الكتابة يتقاطع في جوانب كبيرة مع البورتريه الصحفي الذي يحاول فيه أو من خلاله الصحفي رسم صورة دقيقة ومركزة وجامعة عن الموضوع الذي يريد تقديمه أو التعريف به لجمهور القراء. فينغمس في تمثيل أو إعادة تمثيل، بوسيط اللغة، تفاصيل الوجه وقسماته ونقاطه وخطوطه وملامحه وأيضا تصوير تعبيرات الجسد وحركاته البارزة منها والخفية، العفوية والمفكر فيها، أي جميع المعلومات والمعطيات التي من شأنها أن تقرب القارئ من خصوصية هذه الشخصية وفرادتها وقناعتها وميولاتها وأهوائها. وهذا ليس بالمستحيل على حسن نجحي كاتب هذه الرواية الذي مارس مهنة الصحافة بأجناسها المختلفة لسنوات طويلة، الأمر الذي يمكنه من اكتساب تجربة ورؤية عميقتين. إن هذه الدربة في الكتابة سنجد لها أثرا في هذه الرواية، كما ستمنحها نفسا حكايا موشوما بالتشويق وأحيانا عديدة بالإثارة.

أما النوع الثالث، فهو الذي يهمننا أكثر في هذا المقام بحكم أنه يشغل مساحات أكبر وأبلغ من النوعين السابقين، بل يمكن أن نزع من رواية "جيرترود" تستحضر لحظة حياكة أحداثها ونسج علاقات شخصها ووصف أمكنتها وسرد أزمته مضامين ومحتويات ومعاني

مجموعة من الصور الفوتوغرافية، حينما متخيلة وأخرى واقعية، جيء بها من الألبوم العائلي لجيرترود لتعزيز وترسيخ بعض المحطات والمنعطفات والتحويلات الهامة في حياتها باعتبارها الشخصية المحورية في الرواية. لقد اتخذ هذا الشكل التعبيري في الرواية أوجهها وأشكالا متعددة، فهو تارة يأخذ صيغة بورتريه فردي وأحيانا بورتريه في علاقته بمحيطه وتارة أخرى بورتريه جماعي أو عائلي. وكلها آليات ومكونات وأساليب تشهد على انفتاح هذه الرواية واحتكاكها، وأيضا تفاعلها مع أشكال تعبيرية مختلفة تماما، من حيث المعجم والنحو، عن ما هو مستعمل ومتداول في السجل اللغوي. ولقد تكرر استعمال هذا الجنس التعبيري في أكثر من مناسبة وفي أكثر من فصل، إلا أنه سيبلغ ذروته في الفصل الرابع وتخصيصا من الصفحة 88 إلى الصفحة 95. بحيث من خلال الأشكال والاستعمالات والسياقات التي حضر بها البورتريه في الرواية، نتمكن من التعرف، عن قرب، على طبائع شخصية جيرترود ونسب أغوارها ونكتشف أهواءها ونذكر بعض أسرارها. كما نتعرف على حالات الغموض والالتباس والتقلب والاستقرار التي تغلب عليها في اتخاذ القرارات وتبني الآراء والمواقف والدفاع عن الأذواق والحساسيات ليس فقط في علاقتها بذاتها، وإنما أيضا في علاقتها بأصدقائها وخاصة عاشقها محمد. إن جانبنا كبيرا من أسرار هذه الشخصية يبوح بحقيقتها من خلال مجموع القراءات والحكايات التي تفسر بها أو التي تؤول بها جيرترود محتويات فوتوغرافيات ألبومها العائلي. وأيضا من خلال التعليقات والقصص والأحداث والروايات التي ترفقها بهذه الصور والتي ترتبط في جانب كبير منها إما بلحظات شخصية أو بمناسبات عائلية أو لقاءات مع أصدقاء.

إن المتأمل للسياقات والصيغ التي استعمل بها الألبوم الفوتوغرافي في رواية "جيرترود"، تستوقفه كملاحظة بارزة فكرة إعادة استحضار بعض الجوانب والمحطات من

الذاكرة الحميمة والعائلية لجيرترود. فن خلال هذه الرحلة في الزمن يتعرف القارئ عن قرب عن شخصيتها وعن محيطها ومسارها الأدبي والفني، يقول الراوي في الصفحة 141: "فلاآنسة تجد في الصور ذريعة لتحكي الكثير عن نفسها وعن الآخرين." وفي الصفحة 94 يسرد كذلك "والألبوم الفوتوغرافي الذي قدمته كما لو أنه كتاب يقرأ لا فقط صور تُرى...". إن دور الفوتوغرافيا هنا لا يقل مكانة عن دور الوثيقة التي تسهم في إعادة كتابة تاريخ الأحداث، الخاصة منها أو العامة، كما أنها تقوم بترميم الثقوب والكسور والجروح التي كان لها تأثير ثم أثر سلبي في هذه الذاكرة<sup>3</sup>، وأخيرا أنه من خلال توظيف هذه التقنية أي *ph-autobiographie* نسترجع كقراء أهم المحطات البارزة في حياة هذه الكاتبة المرموقة بدءا من فترة طفولتها وصولا إلى مرحلة تألقها وشهرتها. ويمكن القول، بناء على ما سبق، أن هذا التوظيف للألبوم الفوتوغرافي لم يكن في واقع الأمر سوى ذريعة من كاتب الرواية ليقحمنا في عالم تحري *Enquête* عن حياة بل حيوات هذه الشخصية الأدبية الغريبة الأطوار. وهنا تحضر مرة ثانية المرجعية والتجربة والممارسة وكذلك الحس والذكاء الصحفي، ليقدمنا لنا عالما مليئا بالمجازفات والاستفهامات والتشويق، إلا أنه في الوقت نفسه عالما خاليا من العلامات والآثار والبصمات التي عودنا عليها الأدب النبيء. إذ ونحن نتبع تطور الحكايات في الرواية ونحن نتعقب الأحداث فيها وطريقة تقديم الشخصيات والمآلات والعواقب التي ينتهي إليه مسار البعض منها، نجد ذهننا وجسدنا مشدودين نحو مغامرات وتجوالات تقذف بنا في دروب واتجاهات ودهاليز لا محدودة. ذلك أن الأسلوب الذي تبنته الرواية هنا لا يتأسس على حركة خطية واحدة كما لا يستقر على طريق سير يتبنى اتجاهها كرونولوجيا مستقيما. وإنما سمتاه البارزتان هما التطواف والدوران وهذا مؤشر على أننا نواجه كتابة متمردة وقلقة.

تثير فينا رواية "جيرترود" للكاتب حسن نجحي مجموعة من الأسئلة المرتبطة بالعلاقات الممكنة أو المستحيلة ما بين الكتابة والتاريخ والذاكرة. كما أنها تخترط في نقاش ثقافي وفني يسعى إلى تغيير تصوراتنا للوثيقة، وخاصة عاداتنا الإدراكية لهذه الأخيرة وللعمل الوثائقي ككل. إن المفهوم الجديد الذي تحاول الرواية ترسيخه فينا، لم يعد يحصر معنى الوثيقة فقط في سجل المكتوب أو المخطوط لتأريخ واقعة أو لحظة من لحظات الحاضر أو المستقبل، وإنما صار يعتمد ويبرهن على الصورة بأجناسها المختلفة وأسنادها المتعددة. وهذا يجرنا بدوره إلى الحديث عن حاجتنا اليوم وبإلحاح إلى التعرف على اللغات التي تخاطبنا بها الصور والآليات التي توظفها لأهدافها الظاهرة والخفية وعلى المعجم الذي تحينه لهذه الأغراض وعلى الأساليب التي تستعملها في التعبير والإقناع، وحاجتنا أيضا إلى التسلح بالمعرفة الفكرية والبصرية الكافية لنتمكن من الملاحظة والتفكيك والقراءة والتحليل وإعادة التركيب ثم التأويل لأخذ الحذر من سلطتها القهارة. وتلك مهمة صعبة في زمن سرنا نفتقد فيه يوما بعد يوم لغاتنا وأحاسيسنا وأذواقنا، وصار فيه العماء والضرر هو الثقافة السائدة بامتياز...

<sup>1</sup> - يمكن للقارئ الاستئناس، في هذا الباب على سبيل المثال لا الحصر، بروايات "ثلاثية الرباط" (1994) و"صيف في ستوكهولم" (1990) لعبد الكبير الخطيبي و"الهدية الأخيرة" (2012) لمحمود عبد الغني.

<sup>2</sup> - يمكن العودة كذلك للصفحة 32 من الرواية حيث سيخصص الراوي مساحة هامة لرسم بورتريه عن شخصية محمد بعد موته.

<sup>3</sup> - أنظر الصفحتين 49 و 50 حيث استعملت استعمالا استعاريا للتعبير عن التذكر والذاكرة.